الحقيقة المحمدية والعلم الحديث

حديث العبقرية

بين علم النفس وعلم الاجتماع

للاستاذ مصطفى طه شكيبانه

العبقرية فى علم النفس . . . :

يقيس علم النفس العبقرية بمقياس موضوعى دقيق — غير مقياس علم الاجتماع — الذى رأيناه آنفاً فليس الأمر للمجتمع ، وإنما هو فى أعماق النفس ، والقدرة على التصرف وإدراك العلاقات وتلك قدرة نفسية ، على أنه يتدخل فى صنعها عاملان أساسيان هما الوراثة والبيئة فالانسان يرث صفات خاصة لا دخل للمجتمع فى غرسها أو وجودها ، ثم تتفاعل معها صفات يتشربها من المجتمع المحيط به ، وفى قمة ما يرث الإنسان الذكاء . . .

ولقد حاولوا وصفه فى تعريفات شتى ، لعل أقربها : أنه القدرة على التصرف فى المواقف الجديدة تصرفاً رشيداً ، مع فهم العلاقات بين الظروف الجديدة والخبرات القديمة .

والناس فى ذلك مستويات شتى تنحط من المستوى العادى لعامة الناس حتى تصل لدرجة الجنون ، فى عدد يسير من المجتمع لايتجاوز ٥ ٪ ، كما يرتفع مستوى الذكاء إلى آفاق الحكمة والعبقرية فى عدد يسير أيضاً لايكاد يتجاوز ٥ ٪ .

ومن رحمة الله بالناس أن المستوى العادى يشمل أغلبية المجتمع فيما يقرب من ٤٠ ٪ من الناس ، فى حين نرى الأغبياء وضعاف العقول يمثلون ٢٥ ٪ تقريباً ، وفى مقابلتهم نرى الأذكياء والممتازين بمثل تلك النسبة أى ٢٥ ٪ .

فكأنما جعل الله الأغبياء فى عنق الأذكياء ، والحق فى ذمة العباقرة وإن كان المجتمع كله فى رعاية ما يبتكره العباقرة ويلهمون به من مظاهر الحضارة والرفاهية . حكمة بالغة لمن راد أن يذكر أو أراد شكوراً...

وقد وضع علماء النفس مقاييس تكشف عن القدرات المختلفة فى عقلية الناس ، وإن لم تكن بالغة الدقة على أننا نستطيع بفطرتنا أن نميز بين الأذكياء والمجانين والأغبياء فى حياتنا العامة بسهولة وقلما نشاهد عبقريا ، فهذا تلميذ ذكى فى إجاباته وتصرفاته التى يخلص بها نفسه من المأزق وهذا إنسان ألمعى يقوم بعمله فى مهارة ودقة ويحسن إدارة أعمال مختلفة ، وهذا عبقرى لأنه توصل إلى إدراك علاقات مجردة فى قوانين الحياة أو المجتمع أو المعرفة العليا لهندسة الكون ، أو ابتكاره تصميما رائعاً لجهاز أو أداة جديدة ... وهكذا ...

وهم حينما حاولوا قياس قدرات السابقين العقلية ، وقد مضوا فى ذمة التاريخ ، راحوا يدرسون سيرة هؤلاء الأعلام ليعرفوا كيف تصرفوا فى مشكلاتهم ، وكيف خرجوا على مجتمعاتهم بجديد فى العلوم والفنون والإصلاحات ، فإنه ليس من المهم إدراك الحسن بل تميز الأحسن ، وليس الشأن أن تعدل وضعا كما أن تكون أنت المبتكر الأول لهذا التصميم ، ولذلك سلكوا فى نظام العبقرية عديدين فى مختلف شئون الحياة ...

ذلك هو المقياس .. فأين مكانته فى التعرف على الشخصية المحمدية الكريمة ؟ .

إننا نستطيع أن نقول فى يقين أنه مقياس قاصر فى التعرف على الذات المحمدية فيما أبدعت ، وصنعت ، وأنتجت ، وقدمت من خير وحكمة للإنسانية .

ففيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو — عمالقة الفلسفة الإغريقية ، والنظرة الفلسفية فى الوجود وأمثالهم أصحاب نظرات واعية فى الفلسفة على مر العصور ... ولكن هؤلاء وهؤلاء قلما تجد لهم امتيازاً فى غير هذا المجال الفلسفى ...

ونابليون وروميل ومونتجمرى ، وهانيبال وهولاكو وتيمورلنك وجنكيزخان وخالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص وأبو عبيد وعمر بن العاص وطارق بن زياد ... عباقرة فى قيادة الجيوش ورسم الخطط الحربية ، وفلسفة الدهاء العسكرى والسياسى ، ولكنك قلما تجد لهم امتيازات فى غير هذا المجال .

وباستير ومدام كورى ورونتجن وفليمنج كانوا عباقرة فى كشوفهم الكيميائية والطبية ، والبيرونى وابن الهيثم والخوارزمى ، وكوبرنيقوس وجاليليو ونيوتن وأينشتين عباقرة فى البحوث الرياضية والفلكية والضوئية وعلوم الطاقة والجاذبية .. ثم بوذا وزرادشت وكونفشيوس وحمورابى وإخناتون ، وكسرى أنوشروان

الملك العادل ، وأوناس الحكيم ، وغيرهم وغيرهم زعماء فى الإصلاح والحكم والفقه الكريم لقضايا المجتمع والحياة . ...

ثم الأنبياء جميعا وزعماؤهم الكبار ابراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى عليهم الصلاة والسلام كل هؤلاء وغيرهم أربى عليهم جميعا محمد الكريم فى شخصيته ورسالته ونظراته فى الوجود وحكمته البالغة فى قيادة المجتمعات ، ورسم خطط الإصلاح ، وإرساء قواعد حكمة عالية لفهم مشكلات الحياة والمجتمع ...

ولقد قال أحد المستشرقين : لو لم يكن لمحمد معجزة إلا أنه صنع أمة من البدو فجعلها أمة كبرى فى التاريخ لكفته معجزة فى العالمين ، وقال غيره : لو أن كتاب محمد وجد فى صحراء لكان الذى يعثر عليه جديراً بالخلود ، ولو جاء من عنده لكان جديراً أن تدين له الإنسانية بالولاء فرسالته — فى قرآن كريم أو حديث شريف — حكمة بالغة فى الحياة أحاطت بالمادة والروح وأعطت صورة سكون فى ارضه وسمائه ، وصورة للوجود بدئه ومختتمه ، وأملا عاليا فى الخلود فى طاقات عليا بعد جمود المادة واضطرابها ، ثم تحدثت عن الخالق الأعظم فى أروع صورة للواحد الأحد الفرد الصمد لم يسبق إليها فى فلسفة أو كتاب بهذه الصورة الجامعة الكاملة ...

فإن قيل : إن القرآن الكريم — ليس من صنعه بل هو رسالة الله إليه — قلنا إنه المختار دون العالمين له ، فهو رسالته للعالمين ، وهو المصطفى لتبليغه وشرحه وقيادة الوجود : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » .

وإن قال غير المسلمين — إنه قرآن محمد — كان ذلك أجدر بالاتباع والنظر فى رسالته فهو بهذا يمثل عبقرية فى حكمة البلاغة — وفهم الوجود وسياسة العالم لا نظير لها — كما شهد بذلك منصفون كثيرون من أنحاء العالم من المستشرقين — وإن نظرة واعية فيه ستقنع المنصف بأنه ما كان لإنسان عظيم يجىء يمثل هذا أن يدعى الرسالة ويفترى على الحق الأعظم ...

فلو قد أراد الجاه والمال والسيادة والملك بدعوته — لقد بذلها العرب إليه فى سخاء وتقدير . ولو لم يكن مؤيداً بقوى قاهرة من فوق السماء لتخطفته السيوف ولقضت على عصابته الألوف العديدة التى أحاطت بهم فى كل معركة ومجال ...

على أنه يحمل مع القرآن كتاباً آخر هو حكمته العليا فى حديث رائع يشرح القرآن أو عمله الإصلاحى الذى يطبق به قواعده . ويرسى به قوانينه فى الحياة .

فقد قال : أوتيت الكتاب ومثله معه ، أوتيت الحكمة وفصل الخطاب . أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه ... وقال التاريخ صدق وبر ...

ولقد قال : أنا نبي الرحمة ، بعثت لكل أبيض وأسود . بعثت للناس كافة ... وقال التاريخ ، وقالت دعوته ورسالته وشخصيته : هكذا قد كان ...

ونحن بتوفيق الله تعالى — لا نلقى القول على عواهنه — بل نسوق للمنصفين البراهين فلنتلبسها معا فى معترك الحياة التى خاضها المصطفى الكريم وفى رسالته ...

بين التربية وعلم النفس :

علم التربية والتعليم وثيق الصلة بعلم النفس ، وأصول علم النفس الاجتماعى . فعلم التربية كالنتيجة بالنسبة لعلم النفس يستمد منه أصوله فى رعاية النشء وتوجيه الجماهير للخير والحق ، ونشر المبادىء الكريمة وحمل المجتمعات عليها فى رفق وإقناع ، فلا شىء كالعمل بعد الاقتناع ، ولا اضطراب كحمل الناس على مالا يحبون أو لا يقتنعون به . . .

ومن الأصول المقررة فى علم النفس والتربية اختلاف الناس فى القدرات العقلية ، ومن ثم وجب على المربى مراعاة ذلك فى تربيتهم ، ومنها أن التربية الناجحة ما تمت بالإقناع ، وبالتفاعل الحى بين المربى والتلميذ بحيث يندفع برغبة أكيدة نحو العمل فيسأل ويناقش ويقتنع قبل اعتناق فكرة ما ، ومنها أنه ينبغى أن يعقد المربى صداقة بينه وبين التلميذ فيرتاح إليه ويقبل بشوق نحو تلقى المعرفة منه ، ومنها إثارة الأفكار ، وتهيئة الأذهان قبل عملية التعليم حتى يشعر المتعلم بحاجة أكيدة نحو ما هو بسبيله ، ومنها عدم مجاراة التلميذ فى خطأ ؛ وعدم مجابهته به على أنه جريمة ، فإن ترك النفس على ما ألفت تعود قد يطبع عادة ، ومجابهة النفس بالخطأ يملؤها بالحقد والكراهية لعملية التعلم والمربى ، ومتى حدثت الجفوة بينهما كان من العسير الإفادة والإقناع ، ومنها أن تربية الجماهير وقيادتها غير تربية الأفراد وإقناعهم ، فعلى المربى تقدير كل مقام بما ينبغى له من خطة وتدبير وبيان . . .

فأين هذا كله فى حياة مربى النفس وأستاذ الإنسانية الأكرم محمد ﷺ :

١ — فأما الفروق الفردية ومراعاتها : فهو يعلن أن ذلك سياسة الأنبياء جميعا لأنهم حكماء الإنسانية الكرام — يقول : « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم » . وتطبيقا لذلك جاءه الكثيرون يسألونه بأسئلة واحدة

أو متقاربة فيعطيهم إجابات متفاوتة ولكنها — فى الحقيقة — العلاج الوحيد لمشكلاتهم ، فقد ورد أنه سأله أفراد بأن يوصيهم بعمل يدخلهم الجنة ، ويباعدهم من النار فكانت إجابته لبعضهم : لا تغضب ، ولآخر أن تموت ولسانك رطب بذكر الله ، ولآخر: لا تعق والديك ، ولآخر: قل آمنت بالله ثم استقم ، ونظير ذلك كثير، وكان يكلف الصحابة كلا وما يحسن من الاعمال ، فيجعل للصلاة أبا بكر ، وللقيادة علياً أو خالداً أو زيد بن حارثة ، أو أسامة بن زيد وهكذا ، ويجعل للتربية والتعليم معاذ بن جبل ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس وهكذا . . .

٢ — تهيئة الأذهان : والمعروف عن سيرته أنه كان يتحين الفرص للتعليم ، فقد روى عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم « يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة » . وتقول السيدة عائشة : (ما كان رسول الله يهذر فى كلامه كأحدكم ، وإنما يتحدث بكلمات يعيها السامع فى وضوح وبيان (ما معناه) وكان يقول : « ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من قبلكم لكثرة اختلافهم على أنبيائهم ومساءلتهم » . فهو لا يتحدث إلا إذا استدعى الأمر أو حدثت مشكلة ما تتعلق بها قلوب الأفراد أو الجماعة ليكون الحل والجواب حاسما يتعمق نفوسهم ، والمعروف أن القرآن الكريم كذلك كان ينزل منجما بحسب الحوادث فيكون أدعى للقبول وأيسر فى العمل والحفظ وأهدى سبيلا...

٣ — التربية بالصداقة : ولم يعرف عن جماعة أحبوا قائدهم وإمامهم كما عرف عن أصحاب الرسول الكريم — كباراً وصغاراً — فبنو إسرائيل أنقذهم موسى من فرعون وعمله واختط لهم سبيل الكرامة فى الحياة ، ومع ذلك كانوا أول الخارجين عليه فى مجموعهم ، وحواريو عيسى عليه السلام (على قلتهم) كان منهم يهوذا الذى دل عليه لتناله يد الحاكم بالبطش والإيذاء . . .

أما محمد الكريم فكان مع أصحابه الإمام والصديق فأحبوه فوق أنفسهم وأهليهم هذا واحد يحاط بالسيوف من كل جانب ثم يقال له : أتحب أن محمداً فى مكانك هذا وأنت آمن فى سربك ؟ ! قال : والله ما أحب انه فى مكانه الذى هو فيه تشوكه شوكة . . .

وهو يربيهم بالكلمة واللحظة ، والمشاركة فلا يتفاضل عنهم — يتواضع للكبير والصغير والمرأة فيضع الصغير يده فى يده فما يسحبها منه أولا وتقفه المرأة فى الطريق لتسأله فما يمشى حتى تمشى ، ويؤنس السائل حتى لا يظن أنه فى حضرة إنسان الوجود ،

ويقول : لمن ارتعد عند رؤيته . . . لا ترع إنما أنا ابن امرأة فى مكة كانت تأكل القديد ، ويقف له الصحابة إجلالا فيذهب عنهم التكلف ويقول : لا تفعلوا معى كما تفعل الأعاجم لملوكها ، إنما أنا بشر مثلكم ، وينطلق مع أصحابه فيحضر وقت الطعام فيقول قائل على ذبح هذه الشاة ويقول آخر ، وعلى سلخها ، وآخر على طبخها ، فيقول فى تواضع جم ، وعلى جمع الحطب . . .

فيقولون : كلنا نكفيك هذا يا رسول الله ؟ . فيقول : لا ، إنى لا أحب أن أتميز عليكم ويمضى مع أبى هريرة إلى السوق فيشترى ثوبا فيريد أن يحمله عنه فيرفض قائلا : صاحب الشىء أحق بحمله تعليما للقادة فى كل جيل . . . ويمضى معهم فى غزوة بدر ليقتسم فى الركوب جملا مع على بن أبى طالب ومرتد بن أبى مرتد ، وكلاهما يقول : خذ نوبتى يا رسول الله فى الركوب فيقول : لا . . ما أنتم بأحوج إلى الثواب منى ، وما أنا بمستغن عن الثواب عنكم ، وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة ... ويجلس وسطهم كواحد منهم فلا يشير عليهم بشىء حتى يقولوا لو صنفنا لك دكانا (مصطبة) لتجلس عليها حتى يعرفك الزائر دون مسألة ، فما يشير عليهم بذلك حتى فعلوه هم ، ويخطب على جذع شجرة حتى يقترحوا صنع منبر ، ويمضى فى حاجة الصغير والكبير حتى يقضيها له بنفسه ، ويشترك فى بيته مع أهله فى حاجتهم معلنا : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » .

ويقوم بشأن نفسه فيرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويحلب شاته ، ويأتيه مشرك وقد صمم على قتله فأخذيسبه ويلعنه والرسول يبتسم له فما يرد عليه فينزع بهذه الابتسامة حقده فيجلس إليه ليعلن إسلامه ، ويقول : والله يا رسول الله لقد جئتك وما على وجه الأرض أبغض إلى صدرى منك ، والآن أعود ، وما على وجه الأرض أحب إلى نفسى منك .

وتعود يهودى — جاره — أن يضع له الأشواك والأحجار فى طريقه كل صباح ، ثم تخلف عن ذلك يوماً وثانيا فلما كان الثالث سأل عنه . . فقال أصحابه : أتسأل عنه وهو يهودى فقال : أليس جاراً لنا ؟ . قالوا : إنه مريض . فقال : إذاً وجبت زيارته ، فقالوا : أتعوده وهو يؤذيك يا رسول الله ؟ . قال : إن له علينا حق الجوار . . هيا بنا لزيارته . . فما أن يستقر من المقام عنده حتى تعجب اليهودى قائلا : ما هذا يا أبا القاسم . . أو دينك يأمرك بهذا ؟ . قال : نعم وأكثر منه . . يأمرنى أن أصل من قطعنى ، وأعطى من حرمنى ، وأحسن إلى من أساء إلى . . » .

فيكون ذلك سبب إسلام اليهودى .

أجل هكذا كان المربى الأكبر الذى صنع النفوس بعواطفها النبيلة ، والعقول بأفكارها الواعية ، والقلوب بيقينها الراسخ . . . فهكذا صنعه الله العظيم :

« أدبنى ربى فأحسن تأديبى » . . « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » . « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » وكم من مرة دعا إلى الرفق فما دخل فى شىء إلا زانه ، وما خلا من شىء إلا شانه — كما يقول لعائشة . .

٤ — حل المشكلات بالإقناع والتربية بالحكمة : ومما يتصل بالتربية بالصداقة أن يعمد المربى إلى الفكرة فيصوغها فى أسلوب واضح يضرب له الأمثلة أو يضعه فى نطاق التطبيق حتى يقتنع بالأمر صاحب الحاجة . . وله فى ذلك أمثلة كثيرة . . .

فقد جاء حكيم بن حزام : فسأله أن يعطيه فأعطاه مائة ثم سأله فأعطاه مائة ثم سأله فأعطاه مائة — ولكنه — لم يتركه هذه المرة لينفقها دون وعى فيعود فقيراً كما كان ، وإنما عليه أن يكسب منها قوته فقال يا حكيم : « إن هذا المال خضر حلو فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بشح نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالأرض السبخة التى لا ترتوى من الغيث . أو كمن يأكل ولا يشبع . . » ما معناه .

ويجيئه شاب فى مسجده فيسأله أن يرخص له فى الزنا ، فما يثور فى وجهه ، وإنما يتركه فيسأله ثانية وثالثة فكان ذلك أجمع لقلوب أصحابه ليروا كيف يربى هذه النفس الشاردة فيقول والصحابة يسمعون : أتحب ذلك لأمك ؟ . قال : لا . . قال : أتحبه لأختك ؟ . قال : لا . قال : أتحبه لبنتك لوكان لك بنت قال : لا . . قال : هكذا الناس لايحبونه لأمهاتهم وأخواتهم وبناتهم ، ولكن أعندك من مال تتزوج به . . قال : لا فبعث فى طلب مال من بيت المال وقضى له حاجته بزواج كريم وصلة إنسانية شريفة . . .

فليدلونا على مرب كهذا المربى الكريم ربى بالحكمة والموعظة الحسنة فى تواضع جم ، وصداقة كريمة فصنع أمة كانت أمة التاريخ والخلود وجيلا أحبه كما لم يحب جماعة قائدهم فأقبلوا عليه يغترفون من فيض حكمته ، ويفدونه بالمهج والأرواح . . ذلك إنتاج ما فوق العبقرية إنتاج أزكى نفس عرفتها البشرية .. إنتاج محمد وكفى . (يتبع)